دراسات في الأدب السوفييتي المعاصر

الكسندر بلوك

بقلم جميل كمال الدين

« حين ينذر الجو بالعاصفة فان الشعراء الكبار يتحسسونهاملتيا»
(بلوك)

ـ ١ ـ

يتمتع الشاعر الروسي السوفييتي الكبير الكسندر بلوك بشعبية هائلة في الاتحاد السوفياتي وأوروبا والعالم . ويعد دائما ـ وليس بلا أسباب وجيهة ـ أكبر شاعر روسي في العهد السوفييتي ، بل ان كثيرا من النقاد السوفييت ليعدونه الرائد ، في حقل الشعر ، لكلاسيكية الادب السوفياتي الحديث . يقول العالم السوفييتي المعروف ليونيد تيموفييف : « ان بلوك هو ممثل الشعر الروسي الكلاسيكي ما قبل الثورة الاشتراكية ، ومؤسس الكلاسيكية الجديدة ـ كلاسيكية العهد السوفييتي » (كتابه عن ابداع الكسندر بلوك) .

كانت حياة الشاعر القصيرة نسبيا (١٨٨٠ ـ ١٩٢١) حافلة ، مليئة بكل معنى الكلمة . فقد أضاف هذا الشاعر العظيم اضافات كبيرة الى كنز الادب الروسي والسوفييتي ، وضرب مثلا يحتذى في التحول من الرومانسية الى الواقعية ، وفي الكتابة بأسلوب واقعي يأخذ من الرومانسية افضل ما فيها ، وكان له تأثيره البيّن على كثير من الشعراء السوفييت الكبار ، أمثال مایاكوفسكي ويسينين وباغريتسكي و ب. تيتشينا و م. ديلسكي .

وقد تلقى الشاعر ثورة اوكتوبر بكثير من الاحتفال ، وتحمس لها ، وانشدها ومجدها ، بما استطاع ان يستوعب من افكار ومعطيات هذه الثورة العظيمة التي غيرت مجرى التاريخ .

وكان لثورة أوكتوبر تأثيرها على الشاعر العظيم ، وكان هذا التأثير كبيرا لدرجة انه حتى الآن تصنف المؤلفات وتكتب في بحثه .

فكيف كان ذلك ؟ وما الذي أعطاه أوكتوبر للشعر في روسيا ولبلوك بخاصة ؟ (وعموما ـ ماذا تعطي الثورة الشعر الحق الاصيل ؟) ، وما الذي أعطاه بلوك لاوكتوبر وللسوفييت والعالم ؟

اذن سنحاول الاجابة ، في حدود هذه المقالة المتواضعة ، وبمقدار ما تستطيع ، عن هذه الاسئلة التي تتلخص في سؤال واحد تقريبا : ما هي العلاقة الاسطاطيقية والفنية بين الثورة والشاعر الفنان الموهوب ؟

ـ ٢ ـ

قبل كل شيء ، ينبغي التحدث عن بلوك ما قبل أوكتوبر ، فان بلوك لم يهب نفسه للثورة ، فجأة ، وانما كان ذلك نتيجة تطور تدريجي ، ومعايشة خصبة للواقع الثوري الذي فجر فيه لينين العظيم ثورة اوكتوبر التاريخية الجبارة . ان في شعر بلوك ومراحل تطوره وما قبل الثورة الكثير الذي قاد بلوك ، فيما بعد ، لان يكون شاعرا أوكتوبريا ، شاعرا للعهد السوفييتي .

كان بلوك غنائيا في جوهر ابداعه . وغنائية بلوك واحدة متكاملة ، وهي مليئة ، بشكل غير اعتيادي ، بالاصوات والظلال ، والتضادات والتناقضات . وفي مركز العالم ، بالنسبة الى بلوك ، يظل البطل الغنائي هو البطل الاساسي . ويجدر بنا أن نبادر للقول ان الطريق الذي اجتازه بلوك كان طريقا نموذجيا ، فهو الطريق الذي انتقل ببلوك من الغموض والذاتية المتطرفة الى الوحدة مع العالم ، نحو ولادة الانسان الاجتماعي .

وكان الشاعر في كلامه عن نفسه يتحدث عن العام ، ويكشف باستمرار عن العالم الروحي للانسان .

لقد عاش بلوك وكتب على تخوم عالمين ، وكان شاهدا على التحول الثوري ، كما يقول لينين . غير انه يظل ابنا أمينا لوطنه روسيا ، بارا بها كل البر ، شأنه في ذلك شأن كل شاعر عظيم يرى العالم ، ويطل عليه ، من خلال وطنه :

« ان الاشعار التي ولدت في السنين العجاف
لا تتذكر طريقها الذي سلكت .
اننا ـ أبناء سني روسيا الرهيبة ـ
لا نقوى على نسيان أي شيء » .

ويكتب الشاعر في عام ١٩٠٨ (بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥ (١) بثلاثة أعوام) في قصيدته « روسيا » مثل هذا :

« روسيا ، ايه أنت يا روسيا البائسه ،
ان أكواخك الرماديه
وأغانيك التي تذروها الريح ، هي بالنسبة لي
مثل دموع الحب الاولى » .

كان بلوك مثل سيسموغراف حساس ينقل ، باستمرار ، الاحساس بالقلق ، ويتميز بالتحسس الحاد .

والبطل الغنائي الذي كتب بلوك أشعاره باسمه ، انما هو انسان التهمه الاحساس بكارثة العصر . وعند بلوك تلتحم المعاناة التراجيدية بالانتظار المتوتر لتحوّل عام ، تحول تاريخي تولد في ناره وعنفوانه الحياة الجديدة . والكارثة المنتظرة ممكن أن تظهر مميتة بالنسبة للشاعر

---

(١) هي الثورة التي تعتبر تمرينا ثوريا هاما بالنسبة لثورة أوكتوبر ، وقد انتهت بالفشل ، وفقد العمال والفلاحون كثيرا من الضحايا ، غير ان دروس الثورة كانت خارقة الاهمية .

نفسه ، ولكنها مع ذلك جميلة ومحررة . ومن هنا تبدو نغمة التضحية نموذجية . والشاعر في معركة أبدية حيث لا راحة ولا استرخاء .

ان غنائية بلوك تنتقل الى الغنائية التاريخية . فقد كان يحس دوما انه جزء من الحركة العامة ، وكان يتحسس التاريخ باستمرار .

لقد انتصبت أمام بلوك ، دوما ، مسألة الفرد ومكانته في العالم. ويمكن القول ان الشاعر في فترة النضج قد توصل الى فهم ان الانسان لا يوجد وحده ، بمفرده ، بل في وحدة مع الكلي ، مع العالم. وقد انطلق بلوك ، هنا ، مما تصوره من وحدة العام والخاص ، « العالمي » و « الذاتي » . هذا الاحساس بالوحدة مع العالم يتصل عند الشاعر بمفهوم الغبطة الابداعية ، هذه الغبطة التي تشكل ، في رأينا ، ضمانة الفن الكبير . لقد حاول بلوك أن يؤبد ، ملتهما بنظرته الشعرية العالم ككل ، مدرجا وحدة الانسان في ذلك . وقد اجتذبته في الفن مهمة مزج الحقائق وظواهر الحياة والثقافة ، من أجل القبض ، بمثل هذا الشكل ، على « ايقاع العصر » وايجاد ايقاع معادل له في الشعر . كان كل حديث يعني بالنسبة لبلوك شيئا ما ينبغي أن يجد معادله في الشعر . وكثيرا ما ظهرت الوحدة الموسيقية لديه من « لا شيء » ، من انطباع عابر .

ان أساس الاسلوب الابداعي لبلوك يكمن في التوحد مع العالم ، ورؤية شيء عام وراء كل تحديد ، وايصال نبض العصر اليه . هذا هو ما فهمه بلوك من التجسيد . وتمثل غنائية بلوك بالذات شاهدا لهذا التجسيد ، الذي فهم الشاعر وأحس عبره عاصفة العصر . وكان ذلك الاحساس واقعيا تاريخيا بقرنية ايديولوجية فنية . كانت السنوات الملتهبة في روسيا تتجسد ، عبر الغنائية الذاتية للشاعر ، في الربيع والحياة ، وانعكست ، من خلال الغنائية التاريخية ، في تلك الاشعار التي تحدثت عن صدامات الحب ومآسيه . وما دمنا نتحدث عن الغنائية عند بلوك ، فلنقل ، اذن ، انه أستاذ كبير للحديث الغنائي الدرامي . كان بلوك يستعمل كافة الضمائر فيما يسمى بـ (شركاء الدراما) ، وتنبسط الدراما عنده في الزمن .

والجوهري ، بعد هذا ، هو انه يدخل في هذه الاشعار المعنى الايديولوجي التاريخي العام . وفي القصيدة يتحدد الابطال ويجدون عنوانهم وصورتهم تاريخيا ودراميا. انهم أبناء روسيا البائسة الرهيبة ، روسيا أيامذاك . ويدرك الاحساس بهذا ، بوسائل فنية رقيقة ، بوسائط تبدو فيها النماذج ، بل ويتحدد فيها القاموس الشعري للشاعر ولهجته ونغماته أيضا .

ان البيئة التي ولد فيها الشاعر غنائيا هي هذا التاريخ، والزمن، وعاصفة أخربات القرن التاسع عشر .

ويجدر بنا أن نذكر هنا للقارىء واقعة معينة ، فقد سئل الشاعر مرة أن يقرأ شيئا عن روسيا ، فأشار الى أشعاره الغنائية ، وقال : ان كل هذا هو روسيا !

ذلكم ان الشاعر قد استطاع أن يتوحد ، على نحو عضوي، بالعالم وبالعصر .

— ٣ —

بيد ان بلوك لم يأت فجأة الى مثل هذا المفهوم لوجود الشاعر ومهمته ، وقضية الشاعر (الشاعر يعيش في العصر ، والعصر يشكل له فنه) . فقد ابتدأ بالاوهام والغموض بل وحتى بالاحساس الديني . وما ان امتد به الزمن شيئا حتى جعل يحس « بعاصفة الحياة » حوله . وقد ارتهب هو من هذه العاصفة وحاول التخفي منها في العالم المثالي الذي صاغه من أحلامه وأوهامه (حيث لا دموع ولا عذابات ولا دماء .. وانما الموسيقى والاوراد واللازورد والابتسامات والاساطير والاحلام — فهو اذن صورة متأخرة للعالم الرومانسي ، للشاعر الرومانسي ذي الاتجاه الانساني العام) . وقد حاول بلوك أن يفسر حتى عذاباته « الارضية » باعتقاد غامض بشيء « علوي » . غير ان الشعر عنده كان ينتصر ، مع هذا ، في اكثر من مكان ، على الغموض والميتافيزيق . كان الاحساس المحدد ، العاطفي ، الحسي ، والمباشر بالحياة قد أخذ ينوغل في غنائية بلوك حيث ظهرت أشعار تتحدث عن « الافكار البهيجة » .

وحتى الاعتقاد الغامض الرجراج والاجواء شبه الميتافيزيقية لم تستطع أن تؤدي به الى تصادم وانفصال مع الحياة . ان نهوض حركة التحرر في روسيا في بداية القرن العشرين قد مس بلوك وثيقا . وكان بلوك يرى بأم عينيه تناقضات الواقع : جوع الجوعى وتخمة المتخومين . وقد استيقظ ضميره على نحو آية في الجلاء . فكانت قصيدته عن « المعمل » أول احتجاج للشاعر على النظام الرأسمالي :

« الشبابيك صفراء في البيت المجاور .
وفي الاماسي — في الاماسي
تصر المسامير المستغرقة في التأمل
ويتدفق الناس الى الابواب .

— ✱ —

وتغلق الابواب على نحو محكم
ولكن هناك على المسرح .. على المسرح
أحدهم قد جمد حراكا ... هيئة سوداء مبهمة
تعد الناس في صمت .

— ✱ —

وأنا أسمع كل شيء ، من حيث أنا ، في الاعالي ...
انه يدعو بصوت نحاسي
يدعو القوم لاحناء الظهور المعذبة .
وهناك في الاسفل الشعب الذي اجتمع .

— ✱ —

انهم يدخلون ويتفرقون
ويحمل الحمالون ما أعد لهم ،
ولكنهم هناك في النوافذ الصفراء ... يضحكون
انهم قد خدعوا ... وقد عذبوا هؤلاء البؤساء » .

هنا نفهم ان العالم القديم قد انفضح بالنسبة لبلوك . نعم انه ظل طويلا خارج الحياة الحقيقية ، ولكنه لم يعرفها ، آنذاك . والآن ابتدأ يعيها . ما أروع غبطة المعرفة !

لقد أحب بلوك الحياة ، وقد وجدها صالحة لان نغنّى ، فليس هناك شيء لا يصلح للغناء . ان الحياة صعبة ، فيها نضال قاس لا يهدأ، لكن الحياة جديرة وينبغي أن تعاش . ومن هنا مولد قصيدته « أواه ، اني أريد أن أعيش بجنون » .

ان الحياة ، وحياة روسيا بالذات ، كانت مصدر ايمان بلوك بالمستقبل ، « بالقرن الجديد » . وابتداء من ١٩٠٥ صارت موضوعة الوطن ماثلة أمام بلوك ، في أكثر أشعاره . ثمة قصيدته « في حقل كوليكوفي » ، وهي من اروع انجازات بلوك الغنائية . فهنا الشاعر يتكلم عن روسيا بحب لا متناه ، وبرقة نافذة ، وألم صميمي . هنا الحياة المليئة ، الكثيرة الالوان ، الواسعة ، هنا اللوحة المتحركة للوطن . ففي « لون القربة الباكية » تلتحم كافة أبعاد أغاني بلوك الذاتية والاجتماعية .

لقد صنع بلوك بطله الغنائي الروسيا لا أما — كما كان الامر عند شعراء الماضي ، أو عند شعراء الشرق وعلى وجه الخصوص عند شعراء أرمينيا ، كما هو الحال، مثلا ، عند ايساكيان (١) وشيراز (٢) — وانما حسناء عاشقة ، وزوجة رقيقة ، وصديقة وفية . وهذا النموذج ، بالمناسبة ، مشبع بفولكلور غنائي وأسطوري . هذه هي روسيا — الامل

(١ و ٢) ايساكيان هو أبرز الشعراء الارمن في عهد اوكتوبر وما قبله ، أما شيراز فهو شاعر ارمينيا المعاصر الكبير ويأتي في الاهمية بعد ايساكيان .

والعزاء : « وجهها مضيء أبدا » وهي تذخر « النقاوة الفطرية » . ان روح الشاعر لا تعرف الضياع هنا ، ومعها ومع خيالاتها الخصبة « حتى المستحيل ممكن » . انها ، باختصار ، ترسم الطريق للمستقبل .

ان هذا الحب العارم ، العظيم ، لروسيا والايمان بها ... هو الذي أنقذ بلوك من آخر يأس له . فمن مفهومه لحقيقة ان روسيا « تتلألأ بثورة كبرى » ، ثورة ديمقراطية عظيمة « وشيكة » ... من هنا نهض ايمان بلوك بأن وطنه سيكون له ان يلعب دورا حاسما في حياة الانسانية .

لقد آمن بلوك بالقوى الشعبية ، بقوى هذا الشعب الفطرية الخارقة . وحين التحمت هذه القوى في حركة حذفت العالم القديم (نقصد بذلك ثورة اوكتوبر) ، فان بلوك استطاع ، اذ ذاك ، الارتقاء الى مقام فهم فيه المعنى الكوني ـ التاريخي والرسالة العالمية لثورة أوكتوبر التي غيرت وجه العالم ، وزرعت نبتة الاشتراكية لاول مرة في كوكبنا .

ـ ٤ ـ

وحين اندلعت نار ثورة أوكتوبر ، خفّ اليها شاعرنا بكل روحه ، وكامل كيانه . لقد تقبّلها بحسه الشعري ، قبل كل شيء ، ومجدها في قصيدته التي دوت في العالم كله « الاثني عشر » ، وفي نشيده الوطني « سكيفي » (والمقصود هنا الاقوام الاسيوية التي سكنت القفقاس سابقا) .

لقد حل بلوك الاسئلة التي ترتسم أمام الشاعر الثوري في الظروف الجديدة ، التي تختلف ، بلا شك ، عن ظروف بوشكين وليرمنتوف ونكراسوف ، وأجاب عنها من زاوية شاعر المنبر الثوري . فبرفعه صوته لتمجيد الدفاع عن روسيا الجديدة الحرة وجد نفسه في مكان لا يسعه فيه الا أن يتفهم بمقدار ما أتيح له ـ كشاعر رومانسي انتقل الى صفوف الواقعيين عن اقتناع ـ أخوة الشعوب المشتركة التي عدها الضمانة لكل ما هو طيب ، خيّر ،غير عابر او طارىء ، مما صنعته وتصنعه الانسانية في تطورها الثوري .

لقد توجه بلوك ، وهو الشاعر المخضرم الواقف على تخوم العالمين القديم والجديد ، الى جميع الناس ذوي الارادة الطيبة لاطراح عذابات الحرب ، والتوجه الى « العيد الاخوي للعمل والسلام » :

« أواه ـ أيها العالم القديم ، طالما أنت لم تحتضر ،
وما دمت تعاني من عذابك الحلو ،
قف ، اذن ، وتأمل ، مثلما فعل أوديب
امام ابي الهول بالاحجية القديمة .

ـ ✱ ـ

ان روسيا هي أبو الهول . انها ترنو اليك
فرحة وحزينة ، ولاعقة دما أسود ،
انها ترنو وترنو اليك ،
بكراهية وبحب !

ـ ✱ ـ

أجل ، بحب مثل هذا ، كما يحب دمنا ،
لم يحب أحدكم منذ زمن طويل !
فلقد نسيتم ان في العالم حبا ،
حبا يحرق ، ويميت ! »

ويفلسف بلوك هذا الحب ، ويحلله الى عناصره الاولية ولكن لا يشرحه أجزاء ، بل لكأنه يقدمه الى العالم من خلال منظور ، وبأطياف الحياة الملونة ، الموحدة :

« اننا نحب كل شيء ـ حرارة الارقام الباردة ،
وعطايا الرؤية العلوية ،
ولنا واضح كل شيء ـ أفكار غاليلو الثاقبة ،
والعبقرية الالمانية الكئيبة » .

وهو يدعو العالم القديم الى السلام ، ولكنه السلام غير المستسلم ، السلام الشريف ، أو كما أسماه لينين عن حق ، « السلم الديمقراطي العادل » :

« تعالوا الينا ! من أهوال الحرب !
تعالوا الى أحضان مسالمة !
تعالوا ، ما دام الوقت ليس متأخرا ـ سنولج السيف القديم في الغمد ،
أيها الرفاق سنصبح اخوة ! »

ـ ✱ ـ

فان لم يكن ولم تريدوا ـ فليس لدينا شيء لنضيعه
ونحن نستطيع بلوغ كل شيء !
قرونا وقرونا ـ ستظل تلعنكم
الاجيال المريضة فيما بعد ! »

لكأن بلوك كان يستشف التاريخ ويراه رأي العين !

وفي النهاية ينادي هو العالم القديم ، باسم القيثارة الانسانية ، قيثارة الجموع الثائرة ، الضخمة ، يناديه أن يلقي السلاح :

« وللمرة الاخيرة ، تذكر أيها العالم القديم !
العيد الاخوي للعمل والسلام !
للمرة الاخيرة ـ تدعوك للعيد الاخوي الآلق والنيّر ..
تدعوك القيثارة البربرية ! »

وبقصد الشاعر (بالقيثارة البربرية) قيثارة الشرق ، فقد ظل الغرب الاوروبي يثرثر طويلا حول بربرية الشرق الذي انتفض على قيود رأس المال وعذاباته ، وصمم على أن يصنع لنفسه حضارته الجديدة ، حضارته الاشتراكية . ان بلوك يتكلم باسم كل الشرق والشرقيين (والاتحاد السوفييتي محسوب في حساب الغرب على الشرق) ، فيقول في ثنايا القصيدة ، مخاطبا الغربيين المستعمرين :

« لقد تطلعتم مئات السنين نحو الشرق ،
صاهرين وسابكين لآلئنا ،
وكنتم تحسبون الوقت باستمرار
متى ستستطيعون حشو ماسورات البنادق » .

ويهتف أيضا بكل حرقة الشاعر الغنائي الذي صحا على عذابات وطنه واساءات الغرب المستعمر ، عدو الشرق وعدو اوكتوبر :

« وها قد حان الحين . فالكارثة تخفق بأجنحتها
وفي كل يوم تتعاظم الاساءات » .

لم يكن بلوك ليتوعد قبل ذلك ، ولكن ما دام الغرب قد صمم على التدخل واجتياح الوطن السوفييتي والعدوان عليه ، اذن فلتنطلق الاناشيد . لقد كتب بلوك هذه القصيدة في ٣٠ يناير (كانون الثاني) ١٩١٨ ، وأسماها « سكيفي » ، باسم الآسيويين ، باعتبار ان روسيا كانت تحسب على آسيا ، ولكنها اسيا التي تنتفض وتتمرد وتصنع الحضارة الجديدة ، حضارة « العيد الاخوي للعمل والسلام » .

ان حقد الشاعر ليس بالحقد الاعمى . فالشاعر الغنائي الذي انضم الى صفوف الثورة والثوار قد انطلق من الحب ليعود اليه . وهو في ذلك يستمع الى صوت الحياة . انه يعرف جيدا ان الاستعماريين لا يفهمون الحب البشري ، وهم لا يعرفون لا الانسانية ولا الانسان . لا تهمهم سوى الارباح ، والضم والالحاق . وهو لذلك ، وانطلاقا من ذلك ، يدعوهم ، باسم الشعر والثورة الشاعرة ، أن يرموا السلاح ، ويصيخوا السمع الى جوهر مدنية أوروبا واليونان ، وهو الذي قام على الحب وانطلق منه .

ـ ٥ ـ

وتأتي قصيدة « الاثنا عشر » كأنها تتمم ، او تصنع التوجه الثاني

لقصيدته « سكيفي » التي أشرنا اليها .

لقد أثارت هذه القصيدة الكثير من الضجيج والنقاش وحظيت بتقديرات غاية في التباين . وقد كتبت جريدة « البرافدا » (لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي) في عام ١٩١٩ في الموضوع ، فلفتت أنظار القراء الى ان بلوك لم يدع المثقفين « للاستماع الى صوت الثورة » فحسب ، بل واستمع هو اليها بكل روحه وكيانه و « كانت ثمرة هذا كله أكبر انجازات شعره ، بل وأكبر انجازات الشعر الروسي بعد بوشكين (١) ونكراسوف (٢) وتيوتجيف (٣) ـ نعني بها قصيدته « الاثني عشر » .

ويعقب الناقد السوفييتي المعروف يوري بروكوشيف (في مقالته عن بلوك في « الازفستيا » في ٢٠ اوكتوبر ١٩٧٠) على ذلك ، فيقول « لقد ظل بلوك حتى نهاية عمره أمينا للمثال الثوري « للاثني عشر » ، وذلك برغم التشنيعات والافتراءات التي انقضّ بها عليه المدافعون عن العالم القديم بعد ظهور القصيدة . وحينما ابتدأوا يؤكدون لانفسهم وللاخرين ان بلوك قد « ندم » وأسف لكتابة القصيدة ، بعد أن كانت قد نشرت ، فان الشاعر قد أعلن في نهاية عام ١٩٢٠ ، جوابا على تأكيداتهم : « ان « الاثني عشر » ـ مهما كانت ـ فهي أفضل شيء كتبته . ذلك اني آنذاك قد عشت العالم المعاصر ووعيته » .

ويقول الناقد نفسه في موضع آخر من مقالته التي أشرنا اليها ، انه في التراث الفني للشاعر الروسي الكبير الذي كانه ويظله أبدا (اذا صح هذا التعبير بالعربية ـ ج.ك) ألكسندر بلوك ، فانقصيدتي « الاثني عشر » و« سكيفي » تحتلان مكانة خاصة . وبالذات ففي هذين العملين يقف بلوك في مصاف مایاكوفسكي ، وديميان بيدني ، وسرجي يسينيني ، وينهض كواحد من مؤسسي الشعر السوفييتي .

والحق ان قصيدة « الاثني عشر » لبلوك لا زالت تثير النقاش الحاد حتى الآن ، حتى بين صفوف النقاد السوفييت ، ناهيك عن الضجيج الذي أثارته وتثيره بين أوساط النقاد في الغرب والعالم عامة .

فلنحاول ، اذن ، تفهم المحور الذي دار حوله موضوعة القصيدة ، ومحتواها .

في رأينا ان بلوك قد حاول أن يصور لوحة نابضة موّارة بالحياة ـ كما هي ـ للمجتمع الروسي في أيام الثورة الاولى . النضال المستميت بين العمال والبرجوا (البرجوازيين) ، الموجيك الروسي ، الحقد الذي تعمر به صدور الثوار على الخونة والمحتكرين والظالمين من كل نوع وصنف ، ونشوة النصر التي عمت صفوف الثائرين جميعا بعد القضاء على معاقل الرجعية والخيانة والثورة المضادة . غير ان بلوك يظل متفردا بطريقته الخاصة ، ويتميز باصالته التي لا يجاريه فيها مجار . فهو قد انتهج نهجا خصوصيا جدا ، نهجا « بلوكيا » خاصا به فقط . فالثائر البلشفي هنا ، ياتي في اللوحة « البلوكية » معادلا للمسيح ، رغم كون الثوار قد ثاروا على الكنيسة أيضا ، ورغم كون البلاشفة والماركسية عموما تصف المسيحية بانها الافيون الذي يخدّر الناس ويعرقل الكادحين في تفهم الحقيقة كما هي ، وأخيرا ـ رغم كون الماركسية ـ دين الثوار الجديد ـ تجد مثالها في الارض لا في السماء .

واذن فما الذي حدا ببلوك ـ والثورة في عنفوانها ، وكثير من العمال غاضبون حتى على المثقفين ، وبعضهم يصفون كل من هو ليس بالعامل بانه « برجو » (أي بورجوازي) ـ أقول ما الذي حدا به ، أن يخاطر هذه المخاطرة ؟

يختلف النقاد هنا اختلافا شديدا فيما بينهم ، شأنهم في ذلك في سائر ابداعات بلوك الشعرية والفكرية . فمن قائل ان بلوك مؤمن بالمسيحية ، وقد أراد تثبيت شخصية المسيح ـ بطريقته الخاصة ـ كآخر محاولة للامساك بالمثال الذي هزته الثورة هزا ، ومن قائل انهذه لا تعدو ان تكون راسبا من رواسب مسيحية بلوك ، فيما يقول آخرون ان بلوك لا يؤمن بالثورة أصلا ، وانما يؤمن بالمسيح ، وهو يعارض الثورة بمسيحه ، مؤمنا بانتصاره في خاتمة المطاف . وباختصار ، فان الآراء تتضارب محاولة أن تؤكد عمدية بلوك في طريقة التصوير الشعري في القصيدة ، أو أن تؤكد عفويته وتوفيقيته ـ في أفضل الاحوال ـ بين المثاليين .

وفي رأينا ان بلوك يؤمن بالاثنين ، بالمثاليين معا . وهو لكونه قد فهم نفسية الشعب ـ وخصوصا الفلاحين ـ خير الفهم ، ولانه نفسه ينتمي الى صفوف المثقفين الشعبيين ـ لكل ذلك نراه يجسد صفة الثائر في المسيح ، وصفة المسيح في الثائر ، مشيرا بذلك الى ثورية المسيحية في جوهرها وفي أيام الدعوة الاولى ، والى هالة المسيح في قلوب الناس البسطاء باعتباره رسول العدالة والمحبة والاخوة الانسانية والثورة على الظلم والظالمين . وهكذا نكون الضربة الاخيرة في سمفونية القصيدة كالتالي :

... مكللا ببافة من الازهار بيضاء ـ
في الامام يخطو يسوع المسيح .

ـ ✱ ـ

تبدأ القصيدة بمشهد حي ، تتغير لوحاته تباعا ، ولكن جوهره يظل واحدا وهو تصوير الثورة في انعطافاتها ومراحلها من ناحية ، وتصويرها في جزئياتها وتفاصيلها ، عبر الابطال ـ الثوار ، العمال ـ الجنود . أواخر الخريف وبدء الشتاء في بتروغراد (لينينغراد حاليا) والثوار يتقدمون صفوفا برايتهم التي خطّ عليها لينين ـ في خطبه وفي مرسوم الثورة الاول ـ مرسوم السلام ـ كلمة « الحرية » للمضطهدين في العالم :

« ليل أسود
ثلج أبيض .
رياح ، رياح !
لا يستطيع المرء أن ينتصب على قدميه .
رياح ، رياح
على أرض الله قاطبة .

ـ ✱ ـ

الريح تتلوّى
ثمة ندف بيضاء .
وتحت الثلج جمد ،
متصلب ، زلق ـ
برد هو الذي يسود ...
ستزلّ قدماك ، وآسفاه ...

ـ ✱ ـ

من بناية لبناية
ثمة سلك يمتد .
والراية على السلك تقول :
« السلطة للجمعية التأسيسية ! »
ثمة عجوز تولول ، تصرخ
لا تفهم معناها
ما جدوى هذه الراية

(١ و ٢ و ٣) بوشكين هو كبير شعراء روسيا في القرن التاسع عشر ، وهو يعد بالنسبة الى الادب الروسي بمثابة شكسبير بالنسبة الى الادب الانكليزي ، والمتنبي بالنسبة الى الادب العربي ، وهو مجد روسيا الادبي . ونكراسوف هو أكبر شاعر روسي يمثل التيار الديمقراطي الثوري والواقعية الانتقادية في الشعر الروسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . أما تيوتجيف فهو من شعراء الرومانسية الروسية ذات النزعة الانسانية ، وشعره غنائي اختص بوصف الطبيعة وخوالج النفس .

هذه الخرقة الضخمة ؟
تكفي لتدفئة حشود من الاطفال
العراة الحفاة » .

- ✶ -

مثل دجاجة هي العجوز
تترنح على تلال الثلج المتراكم .
« اسعفيني ، يا أم الاله !
ان البلاشفة يطاردوننا حتى القبور ! »

- ✶ -

وكالسياط هي الرياح !
وليست وطأة الصقيع بأخف من ذلك !
ها هو البرجوازي في المفترق
قد دفن أنفه في ياقة معطفه .

- ✶ -

لكن من هناك ؟ شعره مسترسل ،
وصوته أبحّ :
« الخونة ! »
« نعم ، ان روسيا قد انتهت ! »
كاتب ، لا شك ،
أو خطيب .

- ✶ -

وهناك بتنورة طويلة ،
ينسل من بين تلال الثلج ...
« لم التجهم في هذه اللحظات
أيها الكاهن ، يا رفيق ؟ »

- ✶ -

« أتذكر حالك في الماضي
اذ كنت تسير خلف بطنك
والصليب فوقه يشع
على الناس ؟ »

- ✶ -

وثمة امرأة تلفعت بالغراء
تحادث اخرى
« كم بكينا وبكينا !... »
وتنعثر ، تقع
تهوي على وجهها ـ طب !

- ✶ -

اه ، اه
ارفعوها ، خذوها !

- ✶ -

ريح ممراح
غاضبة ولعوب ،
تعبث بالتنانير ،
تحصد المارة ،
تجمد الراية الضخمة ،
تمزقها ، تلقيها بعيداً :
« السلطة للجمعية التأسيسية ! »
والعبارات :
« نحن عقدنا اجتماعنا أيضا ...
هنا في هذه البناية ...
بحثنا في الامر
واتخذنا قرارات
عشرة راسا ، وخمسة وعشرين لكامل الليلة ...
... باقل من هذا لا نقبل .. من أيما انسان ...
... هلمّ الى الفراش »

- ✶ -

أواخر الليل
يصفر الشارع .
متسول يقبع لوحده
هناك .
والريح تعوي عواء .

- ✶ -

« ايه ، أيها المتسكع المسكين ،
هلمّ بنا ،
لنتعانق !

- ✶ -

هاك خبزا !
ما هناك أمامنا ؟
هيا بنا !

- ✶ -

سماء سوداء سوداء !

- ✶ -

حقد ، حقد أسيف
يثور في الصدور
حقد أسود ، بل حقد مقدس .. »

- ✶ -

أيها الرفيق ، كن يقظا !
ولتفتح عينيك !

- ✶ -

هكذا يمضي المقطع الاول من القصيدة الشهيرة التي تقع في (١٢) مقطعا . انه لوحة لروسيا ، في عهد اوكتوبر ، في أيامه الاولى .

أما المقطع الثاني فيصور فتاة ضالة هي كاتكا (١) (كاترين) وهي تانس مع فانكا (٢) (ايفان) ، وايفان هذا هو برجوازي . ويقدم المقطع تصويرا شعريا رهيفا للالم النفسي عند واحد من هؤلاء الاثني عشر ، واحد يحب هذه الـ « كاتكا » ، انه بتكا (٣) (بيوتر) ، الذي سيضربها بالرصاص فيما بعد لانها تخونه .

وفي المقطع الثاني هذا ، الى ذلك ، سطور تصور الحياة الثورية الرومانسية لجنود الحرس الاحمر :

« حزن » مرير
حياة عذبة !
معطف رث
بندقية نمسوية !

- ✶ -

لنفيظ البرجوا
سنشعل النار في العالم بأسره ،
نارا دموية في العالم قاطبة ،

(١ و ٢ و ٣) كاتكا : هي صفة التدليل والتحبيب لاسم (كاترين) ، وفانكا : هي صيغة التدليل لاسم (ايفان) ، اما بتكا فهي صيغة التدليل لاسم (بيوتر).

البركة منك يا رب ! »

ويشترك المقطع الرابع والخامس والسادس في تصوير مصرع كاتكا بعد أن أخذت تخون بتكا . اما المقطع السابع فيصور عذابات بتكا بعد أن انتقم من خيانة كاتكا . ويجيء المقطع الثامن والمقطع التاسع معا ليصورا لوحة العالم الجديد بعد أن اكتسح العالم القديم ، لوحة لاوكتوبر وهو يسجل انتصاراته تترى على عهد القيصرية والرأسمالية :

« يقف البرجوازي مثل كلب جائع ،
صامتا يقف كعلامة سؤال .
ويقف العالم القديم وراءه ،

مثل كلب دون مأوى ، فقد عقد ذيله بين رجليه » .

اما المقطع العاشر فيسجل انطلاق الاثني عشر في العاصفة الثورية، والشاعر يصيح فيهم وفي كل العالم الجديد الذي يثور نافضا أغلاله :

« سيروا بخطى ثورية !
العدو لا يكل ، انه قريب !
أمام ، أمام ، أمام !
يا أيها العمال ! »

ويأتي المقطع الحادي عشر ليصور الانطلاقة الثورية للحرس الاحمر :

« ... ويتقدم الاثنا عشر جميعا ، في البعيد ،
وليس ثمة اسم مقدس لحدودهم .
لقد تاهبوا لكل شيء
ولم يعودوا يشفقون على شيء ... »

اما المقطع الثاني عشر ، وهو المقطع الختام ، والضربة الاخيرة في السمفونية ـ القصيدة ، فهو يوحد ، على نحو عضوي ، ما بين رؤيا بلوك ما قبل اوكتوبر برؤياه في عهد اوكتوبر ، ففي ذاكرة الفلاحين لم يمح بعد اسم يسوع المسيح المخلص ، وها هو اوكتوبر بالنسبة لهم وبالنسبة لبلوك يتقمص ثوب المخلص . انه مسيح الفقراء ، المعذبين في الارض ، وثورة اوكتوبر هي ثورة الفقراء في كل الدنيا ، هي ثورة الثورات :

« ... للامام يتقدمون بخطى جبارة
ووراءهم كلب جائع ،
وفي الامام ـ مع علم أحمر حمرة الدم
وبعيدا عن النظر في خضم العاصفة ،
وبمنجاة من الرصاص ،
بمشية حفزة فوق العاصفة
ترتمي فيها ندف الثلج مثل اللآلىء ،
مكللا بباقة من الازهار بيضاء ـ
في الامام يخطو يسوع المسيح » .

هكذا وحد بلوك بين الاسطورة الشعبية وبين معطيات الواقع الثوري ، العاصف في تغيراته وانعطافاته ، وهكذا ايضا استطاع بلوك ان يتقدم الى روسيا الفلاحة ، العاملة ، روسيا ـ الشعب الثائر ، الذي أشبعت خلفية الفرد فيه بالاساطير والفولكلور ومعطيات الدين ، دون ان تعوق هذه الرؤيا الثورية وفقا لمبادىء الماركسية ـ اللينينية ، وقيادة حزبها اللينيني ، نقول هكذا استطاع بلوك أن يتقدم الى مثل هذه الروسيا ، آيامذاك ، بعطائه الثوري ذي السموق الفني والفكري ، وذي المستوى العالي في الاقناع والحوار .

موسكو — جليل كمال الدين

دراسات سياسية

من منشورات دار الآداب

الحركة الوطنية الجزائرية	د. ابوالقاسم سعدالله	٩٠٠
الاشتراكية والتسيير الذاتي	البير ميستر ترجمة نزيه الحكيم	٦٠٠
حرب المقاومة الشعبية	الجنرال جياب ترجمة ناجي علوش	٣٠٠
الكفاح المسلح	دوغلاس هايد ترجمة سامي كعكي	٣٠٠
ماركسية القرن العشرين	روجيه غارودي ترجمة نزيه الحكيم	٤٥٠
اصول الفكر الماركسي	اوغست كورنو ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد	٣٠٠
ثورة في الثورة	ريجي دوبريه ترجمة نزيه الحكيم	٣٠٠
الوطن العربي والثورة	د . عبدالله عبدالدائم	٣٢٥
ثورة كوبا	فيديل كاسترو	٤٥٠
كاسترو يتكلم	فيديل كاسترو	٣٥٠
الوجه الآخر لاميركا	ميكائيل هارنفتون ترجمة ادوار الخراط	٤٠٠
قصة المقاومة الفيتنامية	الجنرال جياب ترجمة ريمون نشاطي	٣٠٠
القوة السوداء	ستوكلي كارمايكل ترجمة ناجي علوش	٣٥٠
تشريح جثة الاستعمار	غي دوبو شير ترجمة ادوار الخراط	٦٠٠
الوحدة العربية آتية	ارنولد توينبي ترجمة عمر الديراوي	٣٠٠
الماركسية والمسألة القومية	جورج طرابيشي	٥٠٠
الارهابيون والفدائيون	رولان غوشيه ترجمة ريمون نشاطي	٤٥٠
كارل ماركس	روجيه غارودي ترجمة جورج طرابيشي	٥٥٠
النزاع السوفياتي الصيني	جورج طرابيشي	٥٠٠
سلطنة الظلام في مسقط وعمان	عوني مصطفى	١٥٠
اقتراح دولة فلسطين	احمد بهاءالدين	٢٠٠
ادب المقاومة في فلسطين المحتلة	غسان كنفاني	٢٥٠
هكذا انتصر الفيتكونغ	ريمون نشاطي	٢٥٠
الكواكبي المفكر الثائر	نوربير تابيرو ترجمة علي سلامة	٣٥٠